

الاختلاف في مصادر التصوف الإسلامي

دلشاد سيذا ابراهيم السورجي
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية – اربيل - اقليم كردستان العراق
الإيميل: malik9dilshad@gmail.com

الملخص

الفلسفة الإسلامية ذات فروع متعددة، ومن فروعها التصوف الإسلامي، وبما أن التصوف لم يكن بهذا الاسم الموجود الآن في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فإن معظم فروع حوله خلاف وجدل؛ من اسمه، ونشأته، ومصطلحاته...

ومن فروعها المختلف فيه هو مصادر التصوف الإسلامي؛ حيث أصبحت مصادر التصوف الإسلامي مثار جدل ومناقشة في هل التصوف الإسلامي ناشيء من المصادر الأصلية الحقيقية للدين الإسلامي، أو أن التصوف الإسلامي أخذ بذوره الأولى من مصادر أخرى غير إسلامية؛ وذلك نتيجة اتساع الرقعة الإسلامية واحتكاك الفلاسف والحضارات والثقافات للشعوب غير العربية التي كانت تدين بدين آخر ودخلت في الإسلام.

وحول هذا الموضوع (مصادر التصوف الإسلامي) تحدث كثير من المفكرين والعلماء، وسلطوا الضوء على نشأة التصوف الإسلامي والمراحل التي مر بها التصوف، فأرجعوا أصل التصوف إلى الإسلام نفسه من القرآن والسنة النبوية الشريفة، مع الاعتراف بأن بعض المتصوفة ربما تأثروا بثقافات غيرهم.

وكذلك المستشرقون تطرقوا إلى هذا الجانب من الفلسفة الإسلامية، وأخذوا يكتبون عن التصوف ونشأته ورجاله ومصطلحاته، وقارنوا بين الحياة الروحية في الإسلام والأديان الأخرى، لكن الدافع الذي دفع المستشرقين إلى دراسة هذا الموضوع مختلفاً مع الدافع الذي دفع غيرهم إلى دراسة القضية نفسها؛ فجاءت النتيجة مختلفة لنتائج غيرهم حول مصادر التصوف الإسلامي؛ حيث معظم المستشرقين أرجعوا التصوف إلى مصادر غير إسلامية.

أمل أن يكون هذا البحث المتواضع نابغاً من نفس صافية وروح علمية، وأن تكون قد أصاب الحقيقة في هذا الصدد.

Differences In The Sources of Islamic Mysticism

Delshad Sida Ibrahim Al-Surji

ABSTRACT

Islamic philosophy has many branches, including branches of Islamic mysticism, and since mysticism was not that name now in the time of the Messenger of Allah (peace be upon him); most of the branches around him controversy; controversy; of his name, and his upbringing, and terminology...

Sources of Islamic mysticism have become controversial and debated in whether Islamic mysticism originated from the true sources of the Islamic religion, or that Islamic mysticism took its first seeds from other non-Islamic sources as a result of the expansion of the Islamic area and the friction of philosophies and civilizations. The cultures of non-Arab peoples who were religions of another religion and entered into Islam.

On this subject (sources of Islamic mysticism) many thinkers and scholars spoke, and highlighted the emergence of Islamic mysticism and the stages experienced by the mysticism, they attributed the origin of the mysticism to Islam itself from the Koran and the Sunnah, while recognizing that some Sufis may have been influenced by the cultures of others.

As well as Orientalists touched on this aspect of Islamic philosophy, and began to write about Sufism and its origins, men and terminology, and compared the spiritual life in Islam and other religions, but the motivation that led Orientalists to study this issue is different with the motivation that led others to study the same issue; The results of others on the sources of Islamic mysticism, where most Orientalists attributed the mysticism to non-Islamic sources.

I hope that this modest research stems from the same pure and scientific spirit, and that it has struck the truth in this regard.

المقدمة

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتفرد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله إلى الناس ليبين الحق من الباطل ويمحو الجهل والضلال.

أما بعد:

فإن الإسلام دين كامل وفيه الكثير ما يدل على الزهد في الدنيا وعدم الغرور به، ويحث على العبادة والعمل الصالح للفوز بالجنة يوم القيامة؛ إذ العبادة هي الموصلة للإنسان إلى الجنة، وهي المقصد الأساسي الذي خلق الله الإنسان من أجله؛ (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (1) .

فالإنسان بالعبادة يعلو ويرتقي حتى يكون له مقام عال وقدر كبير عند الله تعالى. والمسلمون من أجل العبادة والتقرب إلى الله تمسكوا بطرق كثيرة وكلها تتحد في المقصد.

ومن إحدى هذه الطرق هو التصوف؛ فإن بعض المسلمين تمسكوا بطريق الصوفية، وحرصوا عليه من أجل العبادة وتصفية القلوب وتحصيل السعادة.

وإن هذا التصوف الموجود لدى المسلمين قد أثار حوله الباحثون والمستشرقون جدلاً كبيراً، وكذلك حول مصادره في هل مصادر التصوف مصادر إسلامية أو غير إسلامية، بل أجنبية ودخيلة في الإسلام.

وانني اخترت ان اكتب عن هذا الموضوع (الاختلاف في مصادر التصوف الإسلامي) لما له من أهمية بالغة في حياة المسلمين ومعتقدهم، ولنكون على علم بهذا الموضوع المهم وعلى المصادر التي أخذ التصوف منها، ولنسلط الضوء على الآراء الواردة في هذا المجال، ولنكون على علم من الاختلافات والشكوك التي خلقت حول مصادر التصوف الإسلامي.

ولا شيء يصل إليه الإنسان بسهولة، بل لا بد أن يجتهد ويعمل ويثابر من أجل مراميه؛ فإن من طلب العلى سهر الليالي، واني كباحث في هذا الموضوع قد واجهت الكثير من الصعوبات من القراءة وجمع المعلومات من الكتب المعبرة في هذا الموضوع، لكن نتائج البحث الصحيحة والعمل يسر صاحبه وكذا قارنه.

وان هذا الموضوع كتب فيه كثيراً ولست أول من أطرق هذا الباب وأكتب عن مصادر التصوف الإسلامي، وإنني قد استفدت كثيراً من كتابات التي سبقت كتابتي لهذا الموضوع.

واقترضت طبيعة البحث والمادة العلمية المجموعة له بوضع خطة مسبقة بمقدمة وتمهيد.

أما بالنسبة للأبواب والفصول والمباحث والمطالب فإني اقتصرت البحث على مبحثين فقط، المبحث الأول تحته ثلاثة مطالب، في المطلب الأول تطرقت إلى الاختلاف في مصادر التصوف الإسلامي، والمطلب الثاني يتناول القول بأن التصوف الإسلامي مصادره إسلامي فحسب، والمطلب الثالث يتناول القول بالأصل المسيحي، والمبحث الثاني تحته أربعة مطالب، المطلب الأول يتناول القول بأن التصوف الإسلامي يوناني المصادر، والمطلب الثاني يتناول القول بالأصل الهندي، وفي المطلب الثالث تطرقت إلى القول بأن مصادر التصوف الإسلامي فارسي، والمطلب الرابع يتناول القول بأن مصادر التصوف مأخوذ من التشيع.

داعياً الله أن يكون هذا البحث المتواضع في ميزان حسناتنا يوم القيامة وأن يوفقني لما يحبه ويرضاه.

التمهيد

الإسلام دين للبشرية جمعاء، وأهم مصادره القرآن الكريم، ولقد تكفل الله تعالى بحفظ هذا القرآن إلى الأبد، ثم بعد القرآن تأتي السنة النبوية الشريفة، وكلاهما يحتان على الزهد في الدنيا والإكثار من العمل الصالح تحت أي اسم كان ما لم يكن مخالفاً للقران وتعاليم الإسلام وأحكامه.

وان أعداء الإسلام والمسلمين حاولوا ويحاولون أن يبتعدوا المسلمين عن دينهم وتعاليمه والمنع من

التلذذ به بطرق شتى.

ومن إحدى طرقهم لإبعاد المسلمين عن الإسلام هو خلق الشكوك حول الإسلام وجوانبه المتعددة، ومن إحدى هذه الجوانب هو التصوف الإسلامي الحقيقي الصحيح؛ فإنهم تارةً يقولون إنه ليس له علاقة بالإسلام، وتارةً يقولون إنه نابع من روح الإسلام خالصةً بعيداً عن أية أصول أجنبية، وتارةً أخرى يقولون إنه من الإسلام لكن أثرت فيه الأديان الأخرى.

المهم عندهم هو إبعاد المسلمين عن دينهم وتعاليمه بأية طريقة كان وتحت أي اسم كان، وذلك موافقاً لقوله تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) (1). وسواء كان منهم مباشرةً أو بواسطة عملاء لهم، الذين يظهرون شيئاً وفي باطنهم آخر ويقصدون تشويه الإسلام.

المبحث الأول

المطلب الأول

الاختلاف في مصادر التصوف الإسلامي

إن أمر التصوف أمر مختلف فيه؛ فكما اختلف في أصله واشتقاقه وحده وتعريفه وفي بدنه وظهوره وفي أول من تسمى وتلقب به، كذلك اختلف في منبعه ومأخذه ومصدره ومرجعه فتشعبت الآراء وتنوعت الأقوال وتعددت الأفكار في هذا.

فقال قائل : إنه إسلامي بحث في أشكاله وصوره ومبادئه ومناهجه وأصوله وقواعده وأغراضه ومقاصده حتى في ألفاظه وعباراته وفلسفته وتعاليمه ومواجيده وأنشيدته ومصطلحاته ومدلولاته وهذا هو قول الصوفية ومن والأهم وناصرهم ودافع عنهم.

وقال قوم: لا علاقة له بالإسلام إطلاقاً قريبة ولا بعيدة، في اليوم الذي نشأ فيه ولا بعد تطوره، وهو أجنبي عنه كاسمه؛ فلذلك لا يفتش عن مصادره ومأخذه في القرآن والسنة وإرشاداتهما بل يبحث عنها في الفكر الأجنبي؛ وهذا رأي السلفيين ومن نهج منهجهم وسلك مسلكهم، كما أن هذا رأي الأكثرية الساحقة من المستشرقين، والكثيرين من الباحثين والمفكرين.

وقالت طائفة: إنه اسم للزهد المتطور بعد القرون المشهود لها بالخير كرد فعل لزخرفة المدنية وزينتها التي انفتحت أبوابها على المسلمين بعد الغزوات والفتوحات وانغماسهم في ترف الدنيا ونعيمها ثم حصلت فيه التطورات ودخلت فيه أفكار أجنبية والفلسفات الغير الإسلامية، وذهب إلى هذا الرأي ابن تيمية والشوكاني من السلفيين وغيرهم من بعض أعلام أهل السنة حتى الصوفية أنفسهم وبعض المستشرقين.

وقال آخرون: إن التصوف وليد الأفكار المختلطة من الإسلام واليهودية والمسيحية ومن المانوية والمجوسية والمزدكية وكذلك الهندوكية والبوذية وقبل كل ذلك من الفلسفة اليونانية وآراء الأفلاطونية الحديثة، وتمسك بهذا الرأي بعض الكتاب في الصوفية من المسلمين وغير المسلمين(2).

والمستشرقون لهم يدهم القوي في مثل هذه الادعاءات؛ يحاول بعضهم رد الحياة الروحية في الإسلام إلى مصدر أجنبي بحث (هندي) أو (يوناني) أو.... أو إلى عدة مصادر منها القرآن وحياة الرسول (ﷺ).

ويحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال؛ فيرى أن العامل الأول في نشأة التصوف إنما كان القرآن وحياة الرسول (ﷺ) ومنها استمد التصوف بذوره الأولى ثم كانت الثقافة الأجنبية – هندية أو يونانية أو فارسية أو مسيحية - هي التي أثرت فيه وجعلته يتطور، وهي التي أمدته من الآراء بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته.

(1)البقرة:120.

(2) ينظر: التصوف المنشأ والمصادر: احسان الهي ظهير ، 49 ، ط 1 ، 1986 . والتصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء منه (رسالة دكتوراه) : ابوالخير تراسون ، 39 ، جامعة ام القرى بمكة المكرمة 2002 م .

وبرغم ان الاستاذ (لويس ماسينيون) (1) يقول في صراحة: أما دراسة مصادر التصوف فإن الشقة بيننا وبين استكمالها ما زالت بعيدة، فإن المستشرقين ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أن يعزوا التصوف إلى مصدر معين او الى مصادر مختلفة يشترك فيها المصدر الإسلامي أو لا يشترك.
فالتصوف إذن: على رأي بعضهم مذهب دخيل في الإسلام، مأخوذ إما من رهبانية الشام وهو رأي (ميركس)، وإما من (أفلاطونية اليونان الجديدة)، وإما من (زرادشتية الفرس)، وإما من (فيدا الهنود) وهو رأي جونس(2).
نحاول بإذنه تعالى ان نتكلم فيما بعد عن هذه الآراء كلها على حدة ونبين السبب في هذه الأقوال.

المطلب الثاني القول بالمصدر الإسلامي

انقسم الباحثون حول هذا الموضوع إلى فريقين: فريق يرى أن نشأة التصوف الإسلامي ترجع إلى عناصر أجنبية، وفريق آخر يرى أن نشأة التصوف الإسلامي ترجع إلى عناصر إسلامية خالصة.
إن نشأة التصوف الإسلامي بناءً على المصادر الإسلامية ذاتها يمكن أن نقول أن هذه المصادر يتمثل في القرآن وفي الأحاديث النبوية وسيرة الرسول (ﷺ) وحياته وفي أقوال الصحابة والتابعين وسيرهم.
وان الصوفية والمؤيدين لهم يرون بان التصوف الإسلامي من أصل إسلامي ولم يتشبت بعناصر أجنبية دخيلة على الإسلام لكي يبرر بها وجوده وقيامه بل إنه قد استند في المقام الأول إلى النصوص القرآنية والسنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين، ويرفضون بان يكون التصوف الإسلامي وليد عوامل غير إسلامية، ويرفضون كلية المنطق الذي استند إليه الفقهاء والمتكلمون في رفضهم التصوف بناءً على نصوص أتوا بها، وحتى غير المتصوفين والمؤيدين لهم يثبتون بأن التصوف أصلها الإسلام؛ فقد أيد المستشرق (نيكلسون) هذه النشأة الإسلامية للتصوف، وبعد أن عرض هذا المستشرق الآراء التي حاولت رد التصوف الإسلامي إلى عناصر غير إسلامية فقد قرر في نهاية الأمر أن وجود التشابه بين التصوف الإسلامي وبين غيره من الفلسفات الأخرى ليس دليلاً على أنه قد قام بناءً على هذه الفلسفات؛ فقد تكون عوامل نشأته هي نفس العوامل التي مرت بها الفلسفات الأخرى.
ويقول المستشرق (ماسينيون) : إن مصادر المصطلحات الصوفية أربعة:

الأول: القرآن وهو أهمها.

الثاني: العلوم العربية الإسلامية كالحديث والفقه وغيرهما.

الثالث: مصطلحات المتكلمين الأوائل.

الرابع: اللغة العلمية التي تكونت في الشرق في القرون الستة للمسيحية الأولى من لغات أخرى كاليونانية والفارسية وغيرها وأصبحت لغة العلم والفلسفة.

وأيضاً ذهب المستشرق الإنجليزي المعاصر (سينسر ترمينجهم) (spencer tirmingham) إلى أن التصوف الإسلامي أصلها إسلامي حيث يقول: إن التصوف الإسلامي تطور طبيعي داخل حدود الإسلام ولا يمت إلا بصلة طفيفة للمصادر غير الإسلامية مع أنه تلقى إشعاعات من الحياة الصوفية الزهدية للمسيحية الشرقية وفكرها، وبالتالي فإن نظاماً صوفياً واسعاً ومتطوراً قد كون في الإسلام، ومهما كان الدين الذي يدين به الأفلاطونية المحدثة أو الغنوصية أو التصوف المسيحي فإنه ينبغي علينا أن ننظر إليه بحق كما نظر إليه الصوفية أنفسهم على أنه النظرية الباطنة للإسلام والسر الذي تضمنه القرآن(3).

(1) هو مستشرق فرنسي من العلماء من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ولد وتوفي بباريس له كتب عن التصوف مثل (مصطلحات الصوفية واخبار الحلاج) : من كتاب الاعلام للزركلي ، 5 ، 247 .

(2) ينظر : قضية التصوف المنقذ من الضلال: د. عبد الحليم محمود ، 94 .

(3) ينظر: التصوف الإسلامي الطريق والرجال: د. فيصل بدير عون، 78-82، دار الثقافة القاهرة، 1983. و مدخل الى التصوف الإسلامي: د. ابو الوفا الغنيمي التفتازاني، 36-37، ط3، دار الثقافة القاهرة 1979م. وقضية التصوف المنقذ من الضلال: د. عبدالحليم محمود 97.

فهذه النصوص مضافة الى سيرته (ﷺ) التي سارها قبل الاسلام وبعده تبين لنا في وضوح وجلاء أن الحياة الروحية الإسلامية قد وجدت في حياة النبي (ﷺ) وفي كتاب الله وسنة رسوله. ومصدرها الأول الذي استمد منه الزهاد زهدهم واستقى منه الصوفية اذواقهم ووجد فيه اولئك وهؤلاء ما يؤيدون به مذاهبهم(1).
واستدلوا بهذا الحديث ايضا (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس)(2).
ثالثا: حياة الصحابة واقوالهم:

كانت حياة الصحابة واقوالهم أيضا منبعا استقى منه الصوفية لأن حياتهم واقوالهم حافلة بالشيء الكثير من الزهد والورع والتقشف والإقبال على الله، وكانت حياتهم كلها اقتداء بالرسول (ﷺ) في أقواله وأفعاله وأحواله، وقد امتدحهم الله تعالى في القران الكريم حيث يقول: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) (3).

وقد أشار الرسول (ﷺ) إلى علو منزلتهم فقال (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)(4).
ومن هنا نظر الصوفية إلى الصحابة على أنهم قدوة في جميع معانيهم الظاهرة و الباطنة.
ومن الأحوال والأقوال التي تعد مصدرا في حياة الصوفية الروحية ما روي عن أحوال الصحابة إجمالا قول أبي عتبة الحلواني: (ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله (ﷺ) أولها لقاء الله تعالى كان أحب إليهم من الحياة، والثانية كانوا لا يخافون عدوا قلوبا أم كثروا ، والثالثة لم يكونوا يخافون عوزا من الدنيا وكانوا واثقين برزق الله تعالى ، والرابعة إن بدا بهم الطاعون لم يبرحوا حتى يقضي الله فيهم وكانوا اخوف ما يكونون من الموت اصح ما يكونون.)(5).

وكان أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) زاهدا حتى ليروى عنه أنه كان يطوي ستة أيام، وكان لا يزيد على ثوب واحد، وكان يقول: إذا دخل العبد العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة(6).

المطلب الثالث القول بالمصدر المسيحي

ذهب فريق من الباحثين إلى أن في الحياة الروحية في الإسلام طائفة من العناصر التي ترجع إلى أصول فارسية وهندية، لكن ذهب فريق آخر من هؤلاء الباحثين إلى أن هناك عناصر روحية أخرى يمكن أن ترد إلى أصول نصرانية، ويؤيد هذا الفريق مذهبه بما كان يوجد من صلات بين العرب والنصارى سواء كانت في الجاهلية أو في الإسلام، ويرون بأن التصوف الإسلامي قد تأثرت بالطقوس والتعاليم المسيحية، كما يقولون إن الديانة المسيحية كانت منتشرة في الجزيرة العربية وفي تلك البقاع التي امتد إليها الفتوحات الإسلامية، وإن أكثر المشتغلين بحركة الترجمة في العصور الإسلامية كانت الغالبية العظمى منهم من النصارى.

كما يذكر مؤرخي الفرق والعقائد بأن بعض متصوفي الإسلام إما أنهم كانوا مسيحيين وإما أنهم يرجعون في الأصل إلى المسيحية؛ يعني أن التعاليم والطقوس المسيحية كانت منتشرة بين المسلمين، وأن الديانة المسيحية بتعاليمها وتعاليم معتنقيها قد أثرت في نشأة التصوف الإسلامي وتأثر بها، وهذا واضح كل الوضوح من التشابه الكبير للغاية بين الاتجاهين في المسائل الخاصة بالتصوف من حب وزهد وشوق ومعاناة، وتصفية للنفس،

(1) ينظر: الحياة الروحية في الإسلام: د. محمد مصطفى حلمي، 39-40، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.

(2) المعجم الكبير: سليمان بن احمد ابو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد الحميد السلفي، 6، 193، ط 2، مكتبة الزهراء - موصل، 1983.

(3) التوبة: 100.

(4) عمدة القاري: بدر الدين محمود بن احمد العيني، ج 10، ص 202، كتاب جزاء الصيد، باب الاغتسال للحرم، برقم (41)، دار احياء التراث العربي - بيروت. وفي كتاب: مشكاة المصابيح: محمد بن عبدالله خطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الاباني، 3، 1696، برقم (6018)، ط3، المكتبة الاسلامي - بيروت، 1985، بلفظ (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم).

(5) اللمع: ابو نصر السراج الطوسي، تحقيق د. عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور، 167، مطبعة السعادة-مصر 1960.

(6) مدخل الى التصوف الإسلامي: د. ابو الوفا الغنيمي التفتازاني، 51.

وتطهير للقلوب، ومعاينة لله، وحب الفقر، والبعد عن الاهتمام اهتماماً رئيسياً بشؤون الدنيا، وأن بعض النظريات الصوفية في الحب الإلهي مشابهة لبعض العبارات والعقائد النصرانية؛ بل هي أصلها مثل القول باللاهوت والناسوت وحلول الأول في الثاني إذا بلغ هذا درجة معينة من الصفاء الروحي. ففيما يتعلق بالزهد وهو الف باء التصوف نجد أن التعاليم المسيحية واضحة للغاية وليست موضع شك، كما أن هذه التعاليم قد نهت عن السرقة والغش والخداع والمراعاة سواء مع الرب أو مع الخلق. فقد ورد على لسان السيد المسيح قوله لأحد المؤمنين الجدد: (إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني).

كما أن تعاليم المسيحية قد حثت على حب الرب وحب الأهل والأصدقاء حتى وإن أسأوا إلى الإنسان: (قد سمعتم أن قيل للأولين العين بالعين والسن بالسن أما أنا فأقول لكم أحبوا أعدائكم، وأحسنوا إلى مبغضيتكم، وصلوا لأجل الذين يبغضون إليكم ويضطهدونكم) (1).

ودأب كثير من المستشرقين وخاصة المهتمين منهم بالتصوف الإسلامي أن يرجعوا نشأة الزهد إلى عوامل خارجية، منها أسباب إجتماعية وسياسية تمثلت في الخلافات التي نشأت بين الصحابة، ومنها أسباب ثقافية تمثلت في تأثير المسلمين بالثقافات المختلفة والحضارات المجاورة لهم والسابقة عليهم.

فان المستشرق (رينولد نيكلسون) كتب عن هذا الموضوع، ويفسر ظهور الزهد بين المسلمين على أنه أثر من آثار احتكاك المسلمين بالمسيحيين وخاصة الرهبان، فالمسيحية عنده قد غرست بذور الزهد في بلاد العرب قبل البعثة المحمدية وظل أثرها يعمل عمله في تطوير الزهد الإسلامي ويؤكد أيضاً فكرته هذه بأن رهبان المسيحية قد ضربوا المثل والقوة للوثنيين من العرب في الزهد، وحركوا في نفوس بعضهم ميلاً إلى النفور من الأوثان ورفض عبادتها فدان هؤلاء بعقيدة التوحيد واصطنع بعضهم الزهد ومجاهدة النفس.

كما يذهب المستشرق إلى أن تأثير المسيحية في حركة الزهد الإسلامي هو الذي يفسر كيف كان محمد وأتباعه الأولون يقومون الليل كله أو بعضه تهجداً وتعبداً، ولم يكن الزهد من الخصائص التي أشار بها الإسلام ولا نبي الإسلام.

ويمكن أن نلخص رأي نيكلسون في أمور محددة:

1. يرى أن المسيحية قد غرست بذور الزهد في جزيرة العرب قبل الإسلام، وأنها أثرت في حياة الرسول وصحابته فكانوا يقومون الليل عبادة وتبتلاً محاكاة للمسيحية.
2. إن رهبان المسيحية قد حركوا في نفوس بعض العرب النفور من الأوثان فهجروا الوثنية واعتنقوا التوحيد متأثرين بالرهبان المسيحيين.
3. لم يكن الزهد من خصائص الإسلام ولا نبي الإسلام.
4. ليس في القرآن الا قليل من الآيات التي لها صفة الزهد، وربما كان دليله على ذلك أن كلمة الزهد لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة.

و يمكن أن نرد على رأي نيكلسون بما يلي:

- 1- إن الزهد ليس خصوصية دين سماوي بعينه، وإنما هو مبدأ عام نزل به الوحي في الأديان السماوية الثلاثة، وقد يختلف الشكل التاريخي الذي ظهر به من عصر إلى آخر، لكن الجوهر والأساس كان واحداً؛ وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) (2) وقوله تعالى: (ولأخرة خير وأبقى) (3). وهذه قضية جاءت به صحف موسى، وإنجيل عيسى، والقران الكريم في غير موضع، قال تعالى عن موسى وقومه: (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة) (4). والذي جاء في صحف موسى قال به عيسى عليه السلام: (قال إني عبد الله ءاتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً) (5).

(1) ينظر: التصوف الإسلامي الطريق و الرجال: د. فيصل بدير عون، 63-65. الحياة الروحية في الإسلام: د. محمد مصطفى حلمي، 54-55.

(2) القصص: 77.

(3) الأعلى: 17.

(4) الأعراف: 145.

(5) مريم: 30-31.

وفي مقام آخر يبين القرآن أن ما جاء به محمد (ﷺ) قد جاء به النبيون من قبله، قال تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين) (1).
وينبغي أن نفهم هذه القضية في ضوء وحدة المصدر لهذه الأديان السماوية، ووحدة المنهج الذي جاء به الوحي من عند الله، ولقد أشار الرسول (ﷺ) الى ذلك في حديثه (نحن معاشر الأنبياء أخوة علات، ديننا واحد وأمهاتنا شتى) (2).

إذن فإن مصدر الأديان السماوية واحد، فلا داعي أن يقال بأن هذا الدين تأثر بالآخر، فكما أن محمداً (دعا إلى الزهد والتصفية و التوكل والصدق والعفو والأمانة، فإن الأديان السماوية الأخرى أيضاً دعا إليها؛ لأن المصدر واحد.

- 2- أما قوله بأن رهبان المسيحية قد حركوا العرب إلى التوحيد والنفور من الوثنية؛ فلو كان كذلك أليس من الأولى أن يعتنقوا التثليث لأنهم (أي رهبان المسيحية) لا يوحدون بل يقولون بالتثليث، وأن فاقد شيء لا يعطي.
- 3- أما قوله بأن الزهد ليس من خصائص الإسلام ولا نبي الإسلام فهذا دليل على عدم معرفته بطبيعة الأديان عموماً وفي قمتها الإسلام و عدم علمه بحياة الرسول (ﷺ) فإن الرسول (ﷺ) قد يمر عليه الشهر والشهران و لا يوقد في بيته موقد وكان طعامه هو وأهله الأسودين (التمر والماء).
- 4- أما قوله بأن كلمة الزهد جاءت مرة واحدة في القرآن ولم يتكرر، فهذا غاية جهله بالقرآن وطبيعة الإسلام إذ الكثير من الآيات القرآنية تحت على الزهد في الدنيا والتحذير عن عدم الاغترار بالدنيا وبأن الآخرة خير وأبقى. (3).

المبحث الثاني

المطلب الأول

القول بالمصدر اليوناني

لقد ذكر جمع من الكتاب والباحثين في التصوف ممن اشتغلوا به من المسلمين وغير المسلمين من المستشرقين بان الأفلوطينية الحديثة هي أحد المصادر الأساسية للتصوف الإسلامي بل إنها هي المصدر الأول بالنسبة للقائلين بوحدة الوجود والحلول بدءاً من أبي يزيد البسطامي وسهل التستري والترمذي الملقب بالحكيم وغيرهم، وإن هؤلاء أخذوا نظرية الفيض والمحبة والمعرفة والإشراق مع الآراء الأخرى التي تمسكوا بها من الأفلوطينية الحديثة.

يقول صوفي معاصر: وأما وحدة الوجود الحلولية التي تجعل من الله كائناً يحل في مخلوقاته أو الاتحادية بالمعنى المفهوم خطأ تلك التي تجعل من الكائن الفاني شخصية تتحد بالموجود الدائم الباقي المنزه عن سائر النسب والاضافات والاحياز الزمانية والمكانية المحدثة أو يتحد به شيء منها فإنها مذهب هندي أو مسيحي، وليس بإسلامي ولا يعرفه الإسلام، إستمده أهل الشوذ في التصوف الإسلامي من الفلسفة البائدة، وغذوا به مذهبهم الشاذ بفكر أفلاطونية وآراء بوذية وفارسية عن طريق الفارابي وابن سينا، حاله أن المتتبع لحياة الحلاج ومؤلفات السهروردي وابن العربي يرى أنهم تأثروا بالمتفلسفة المسلمين الذين أخذوا عن الفلسفة الأفلاطونية القديمة والأفلاطونية الحديثة والأرسطو طاليسية.

ويقول الدكتور ابو الوفا الغنيمي التفتازاني: نحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الإسلامي، فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة والأفلاطونية المحدثة خاصة إلى صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل أو الاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحران، وقد خضع المسلمون لسلطان ارسطو، وليس من شك أن فلسفة أفلوطين

(1) الشورى: 13.

(2) لم احصل على هذه الرواية بل حصلت على رواية قريبة منها ، في كتاب : صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج ابو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، 4 ، 1837 ، برقم (2365) ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى (عليه السلام) ، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بلفظ (الانبياء اخوة من علات وامهاتهم شتى ودينهم واحد) .
(3) ينظر: من قضايا التصوف في ضوء الكتاب و السنة: د. محمد السيد الجليلند، 38-42، ط4، دار قباء، القاهرة 2001م.

السكندري التي تعتبر أن المعرفة مدركة بالمشاهدة في حال الغيبة عن النفس وعن العالم المحسوس كان لها أثرها في التصوف الإسلامي فيما نجده كلام متفلسفي الصوفية عن المعرفة. ويقول أيضاً: وإن كنا نعترف بأنه كان للفلسفة اليونانية والأفلاطونية المحدثة أثر على التصوف الإسلامي لكن نحن لا نرد التصوف كله إلى مصدر يوناني؛ لأن المتصوفين لم يقبلوا على الفلسفة اليونانية إلى القرن السادس الهجري وبعده (1).

أما بالنسبة للمستشرقين وأقوالهم فقد ذهب بعضهم إلى أن التصوف الإسلامي يرجع إلى أصل يوناني، والقائلون بهذا الرأي كثيرون إلا أنهم يعنون بالتصوف الآخذ من مصدر يوناني نوعاً خاصاً منه هو أن التصوف الإلهي الفلسفي الذي يبدأ في القرن الثالث الهجري على يد (ذي النون المصري)، فقد تساءل (أوليري) عن مصدر الكلام في الإلهيات الذي نشأ في التصوف الجديد وانتهى إلى القول بأن هذا المصدر كان الأفلاطونية المحدثة.

ويقول المستشرق (نيكلسون) أيضاً: أن التصوف الفلسفي الإلهي أثر من آثار النظر اليوناني، ولا مناص من الاعتراف بما في التصوف من امتزاج الفكر اليوناني والدين الشرقي لاسيما الأفلاطونية المحدثة والمانوية والغنوصية (2).

والقائلون بهذا الرأي يرون بأن المتصوفة أخذوا في تدعيم مبادئهم وأفكارهم عن الأفكار اليونانية المتعددة المذاهب والطرائق ولعل من أبرزها الأفكار الآتية:

1- الفكر الغنوصي: الغنوصية كلمة يونانية معناها المعرفة، ولكنها تطورت حتى أخذت معنى اصطلاحياً وهو التوصل بطريق الكشف إلى المعارف العليا، أو تنوq المعرفة تنوqاً لا يستند إلى برهنة عقلية؛ وهذا موجود عند الصوفية.

وقد ذهب بعض الباحثين الأوروبيين إلى أنه مادامت كلمة (صوفية) مستمدة من كلمة (سوفيا) اليونانية؛ فهذا دليل على أثر الفلسفة اليونانية في رجال الصوفية، وأن هؤلاء إنما كانوا تلامذة للأفلاطونية المحدثة وبخاصة غنوصها العنيف الذي استتر فيه حين نقل إلى العالم الإسلامي في كل الغنوصيات الشرقية.

2- الأفلاطونية المحدثة: تعد الأفلاطونية الحديثة من أهم المصادر التي اقتبس منها الصوفية في نظرية الكشف والشهود؛ لأنها أتت بالنظريات الفلسفية كالمعرفة الإشرافية التي تلقى القاء في النفس عند تحررها وتطهرها عن الكدرات.

يقول الدكتور النشار: وصلت هذه الأفلاطونية المحدثة خلال كتاب (أولوجيا أرسطو طاليس) كما هو معلوم الآن ومقرر في الدراسات الفلسفية الإسلامية، ولكن الجديد هو كتاب (أولوجيا) أو تاسوعات افلوطين لم تصل كما هي، بل أثبت البحث العلمي أن كثيراً من الآراء الغنوصية الشرقية قد اختلطت بها وأثر هذا المزيج الغنوصي العجيب – غنوص الأفلاطونية المحدثة وغنوص المذاهب الإيرانية – في العالم الإسلامي وأثر بالتالي في الصوفية (3).

يعني حسب هذا القول فإن الأفكار اليونانية المتمثلة في الغنوصية والأفلاطونية الحديثة تعتبر من مصادر التصوف الإسلامي، هؤلاء المستشرقون القائلون بهذا القول يشبهون الغنوصية بما يفعله الصوفية من أنهم يتوصلون إلى المعرفة عن طريق الكشف والشهود، وأن تركيز فلاسفة اليونان على النفس وتزكيتها بالمعرفة والادراكات الفعلية والتهديب والالتصاق مع العالم الخارجي حتى تستطيع التحرك باتجاه الكمال أمر يلتقون فيه مع الصوفية.

يقول المستشرق الفرنسي (ماسينيون): وتسربت الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي، وأخذ سلطانها يزداد باطراد منذ أيام الأثرية القرامطة القدامى والرازي الطبيب إلى عهد ابن سينا، وكان من نتيجة ذلك أن استحدثت في القرن الرابع الهجري مصطلحات ميتافيزيقية أدق من سابقتها يفهم منها أن الروح والنفس جواهر غير مادية، وأن ثمة معاني عامة، وسلسلة من العلل الثانية وغير ذلك، وأن هذه المصطلحات اختلطت

(1) ينظر: التصوف المنشأ والمصادر: احسان الهي ظهير، ص 121. ومدخل الى التصوف الإسلامي: د. ابو الوفا الغنيمي التفتازاني، 33 - 34.

(2) ينظر: مدخل الى التصوف الإسلامي: د. ابو الوفا الغنيمي التفتازاني، 32 - 33.

(3) ينظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: د. علي سامي النشار، ج 3، 45 - 46، ط 8، دار المعارف 1980.

بالإلهيات المنحولة لأرسطو، وبمثل افلاطون، وفيوضات أفلوطين، وقد كان لهذا كله أثر بالغ في تطور التصوف(1).

ولكن بعدما يقر (نيكلسون) بأن التصوف الإسلامي مصدره من الأفلوطينية المحدثه فهو يغير رأيه ويتحول عن هذا الرأي حينما يكتب مادة التصوف في دائرة معارف الدين والأخلاق فيقول: وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الإسلامي حتى الآن معالجة خاطئة، فقد ذهب من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التي استحدثت حياتها وقوتها من جميع الطبقات والشعوب التي تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً دقيقاً يرجعها إلى أصل واحد (كالفيدانتا الهندية) أو (الفلسفة الأفلاطونية) أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة لا الحقيقة كلها.

ويشرح الأستاذ (لويس ماسينيون) فكرة (نيكلسون) الأخيرة ويقول: فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التي اختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف المسلمين على قراءة القرآن والحديث، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل(2).

هذا حال المستشرقين؛ تارة يقولون بمصدره الأجنبي، وتارة أخرى يقولون بأن مصدره إسلامي بحث ونابع من صلب الإسلام وحال المسمين وعكوفهم على قراءة القرآن والحديث والتأثر بهما.

المطلب الثاني القول بالمصدر الهندي

ذهب بعض المستشرقين إلى أن التصوف الإسلامي يرجع أصله إلى الديانات الهندية القديمة، ومن هؤلاء المستشرقين (ماكس هورتن) الذي كتب مقالات كثيرة، وظن أن التصوف الإسلامي أصله من الديانات القديمة ولكن لم يكن لديه أدلة مقنعة(3).

والذين قالوا بأن التصوف الإسلامي مصدره هندي أو أن التصوف الإسلامي قد تأثر بالديانات الهندية سواء كانوا من المستشرقين أو غيرهم قالوا إن كل من يقرأ في كتب المتصوفة بإمعان ويفهمها جيداً سيدرك بأن المتصوفة قد تأثروا إلى حد كبير بأديان الهند القديمة في تعاليمهم وعقائدهم وأورادهم وأذكارهم وطرق تعبدتهم ورياضاتهم.

وقد لاحظ هذا الأمر أبو الريحان البيروني حينما عقد مقارنات في المذهب، وكشف عن وجه الشبه بين مذاهب الهند (كالفيدانتا) وبين مذاهب الصوفية، وبين نصوص كتاب (بيتجل - باتنجل)، وبين أقوال البسطامي والحلاج والشبلي، كما لاحظ أيضاً جماعة من المستشرقين الذين قاموا بالبحث في هذا المجال . ومن هذه الأشياء التي أبانها البيروني وغيره من الباحثين من أن هناك أوجه التقارب بين الأفكار المتصوفة والهنود الوثنيين ما يلي:

1- الحلول ووحدة الوجود: إن الاعتقاد بالحلول مأخوذ من العقائد الهندية الوثنية، فالهنود قد قالوا بالحلول في كتبهم التي كتبها لهم الكهنة والسحرة.

قال البيروني بهذا الصدد: وإلى طريق بيتجل ذهبت الصوفية في الإشغال بالحق، ثم ذكر أمثلة لذلك من أقوال الصوفية أنفسهم، ومن الأدلة التي ذكرها الصوفية الآتي: (ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإخفائها عنك، فلا يبقى مشير ولا إشارة)، وبين في كلامهم ما يدل على القول بالالتحاق كجواب أحدهم عن الحق (وكيف لا اتحقق من هو أنا بالإنية ولا أنا بالإنية؟ إن عدت بالعودة فرقت، وإن أهملت فبالإهمال خفت وبالاتحاد الفت).

(1) ينظر : التصوف المنشأ والمصادر : احسان الهي ظهير ، 131 .

(2) ينظر : قضية التصوف المنقذ من الضلال : د عبدالحليم محمود، 95 - 96 .

(3) ينظر : التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع : د. السيد رزق الحجر ، 17 ، دار الهانيء ، 2004 م. والحياة الروحية في الإسلام : د. محمد مصطفى حلمي ، 33 .

- ومن الأدلة التي ذكرها البيروني على قول الصوفية بالحلول متأثرين بأديان الهند القديمة قول الشلبي: (خلع الكل تصل إلينا بالكلية فتكون، ولا تكون أخبارك عنا وفعلك فعلنا).
وكجواب أبي يزيد البسطامي حينما سئل: بم نلت ما نلت؟ فقال: إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت إلى ذاتي فإذا أنا هو(1).
2- تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة: أخذت المتصوفة نظرية تعذيب النفس وتحميلها أكثر مما تطيقه، وحرمانها من الأكل والشرب واللباس من الديانات الهندية القديمة وخاصة البوذية.
يحكي (ول ديورانت) قصة بوذا عندما يخلف المدينة بصحبة سائق عربيته ويستقر في مكان ستة اعوام، وأخضع نفسه لأشق أنواع التعسف، وكان يمارس رياضة النفس، وعاش على الحبوب والكلأ، وليس ثياباً من الوبر، وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل لنفسه العذاب، وأثر فيه تقليل الطعام حتى برزت عظام فقراته.
أما لو أخذنا مثل هذه النماذج من المتصوفين لوجدنا منهم الحكايات المتشابهة التي تلمح إلى شيء من تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة؛ فإبراهيم ابن أدهم مثلاً كان رجلاً غنياً ، وكان من أبناء الملوك وتزوج امرأة جميلة، ولكنه ترك الملك والزوجة والأولاد وكل ما كان يملكه للنداء الغيبي أو للقاء الخضر الذي لفته ذلك حسب زعمهم(2).
وذكر الطوسي بأن الشلبي كان يكتحل بالملح ليعتاد السهر ولا يأخذ النوم، وأحياناً كان يحمي الميل فيكتحل به(3).
فالقائلون بهذا القول استدلوا بمثل هذه الأدلة على أن التصوف الإسلامي مصدره هندي.

المطلب الثالث القول بالمصدر الفارسي

- تطرقنا من قبل إلى بيان الأقوال المتشعبة حول مصدر التصوف الإسلامي، ومن هذه الأقوال القول بأن مصادر التصوف الإسلامية فارسية.
وحتجهم في ذلك أنه كان هناك صلات بين الهند وفارس، وبعد الفتوحات الإسلامية الواسعة ودخول العديد من العرب والعجم في الإسلام كان لا بد من التمازج الثقافي والحضاري بل والتصاهر بين سكان البلاد المفتوحة والفاحين العرب، وقد لقي سكان البلاد الأصليين معاملة طيبة من المسلمين إلا أنهم كانوا يضمرون بذور الحقد والضغينة للمسلمين متمثلة في تلك البذور العقائدية السابقة في نفوسهم، متربصين الفرص للتخلص من الدين الإسلامي وحكمه، والعودة إلى ما كانوا عليه من عقائد، ولم تتح للفرس تلك القوة للتخلص من الحكم الإسلامي أثناء الدولة الإسلامية إلا أنهم في عصر الدولة العباسية وعصر الترجمة بثوا عقائدهم الفاسدة في الأوساط الإسلامية من أجل التشكيك في عقيدة التوحيد الإسلامية، وإضافة إلى ذلك فإن بعض شيوخ المتصوفة كانوا من الفرس وكان لهم أثرهم البالغ في العقيدة الإسلامية.
القائلون بأن التصوف مصدره فارسي ذكروا أن للتصوف الفارسي أثر في التصوف الإسلامي وأجملوه في ثلاث نقاط رئيسية:
1- نظرية الحق الالهي.
2- فكرة الإمام المعصوم.
3- القول بالحقيقة المحمدية : وقد قال به المتصوفة الفلاسفة فذهبوا إلى القول بأن الحقيقة المحمدية هي مبدأ خلق العالم وأصله، بل هي العمد التي قامت عليها قبة الوجود، وظنوا بأن الحقيقة المحمدية سبب في كل الموجود كما في الكتاب الزرادشتي المعروف باسم (زند افاستا) وهو أن هرمرز إله الخير في الديانة الزرادشتية لم يخلق الكون بما فيه من كائنات روحية ومادية خلقاً مباشراً بل خلقه بواسطة الكلمة الإلهية.

(1) ينظر : الحياة الروحية في الإسلام : د . محمد مصطفى حلمي ، 40 – 49 .

(2) ينظر: التصوف المنشأ والمصادر: احسان الهي ظهير ، 50 – 53 .

(3) الملح: ابو نصر السراج الطوسي ، تحقيق : عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ، 275 .

وأيضًا فإن هناك شبه بين التصوف الإسلامي والعقائد الفارسية القديمة، فالزهد في التصوف الإسلامي يشبه الزهد والرهبنة في الديانة المانوية، كما يشبه الزهد والقناعة والنهي عن ذبح الحيوان في الديانة المزدكية وعقائد الشيعة وغلاتهم في حق الملك الالهي، وفي حلول الله في الإمام تكاد تكون صورًا جديدة (1). وبعض المستشرقين أيضًا قالوا بأن التصوف الإسلامي أصله فارسي أو مجوسي، منهم المستشرق (تولك) لقد صرح في أول حياته بأن التصوف الإسلامي مصدره مجوسي ثم عدل عن ذلك وغير رأيه وذهب إلى الطريق المقابل، وقال: إن التصوف وكل ما فيه من الأفكار المتطرفة يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول (ﷺ) (2).

واخيرًا فإن كلاً من الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور السيد رزق الحجر يردان بأن يكون التصوف الإسلامي ومصدره من الديانة الفارسية القديمة، وأن يكون سببًا عما كان بين العرب والفرس من صلات ثقافية واجتماعية، والأولى أن يتأثر الفرس بالعرب لأنهم (أي العرب) كانوا هم حاملوا لواء الحضارة، وحصلت هذه حقيقة.

أما القول بأن كثيرين من رجال التصوف وشيوخهم كانوا من الفرس فهذا أيضًا دليل ضعيف ولا يدل على أن التصوف الإسلامي مصدره الديانة الفارسية القديمة لأنه كان عدد اكبر من المتصوفة ورجالهم وشيوخهم كانوا عربًا.

أما التشابه بين الديانتين فهذه أيضًا لا يستدل به؛ لأن هذا التشابه أحيانًا يرجع إلى السلوك الإنساني إزاء موقف من المواقف أو مشكلة من المشاكل.

أما القول بخطة فارسية لتخريب الفكر الديني الإسلامي ثأرا على انهيار الدولة الفارسية فإن هذه الفكرة وإن صحت فإن تأثيرها يأتي بعد مرحلة الزهد الإسلامي وتطوره إلى التصوف؛ فلا دليل فيها على القول بقيام التصوف الإسلامي على مصدر فارسي، وأيضًا فإن الصلات التي كانت بين الفرس والعرب والاحتكاك بينهم كانت كلها تحت لواء الإسلام (3).

وهذا الرأي هو الذي أميل إليه وأرجحه، أي وإن كانت هناك صلات بين الفرس والعرب، وإن كان بعض شيوخ المتصوفة كانوا من الفرس فإن هذا لا يدل على أن التصوف الإسلامي مصدره الديانة الفارسية؛ لأن الإنسان لما يسلم ويدخل في دينه الجديد، يعتنق أفكار ذلك الدين وعقائده، وإن هذه الصلات بينهم فليس بدليل بأن التصوف الإسلامي من الديانة الفارسية.

أما التشابه بين الديانتين والانتقام من الدولة الإسلامية فهذا أيضًا ليس دليلًا قويًا؛ لأن كل دين له تعاليمه الخاصة به، وأن التصوف الإسلامي مادام لا يتناقض مع العقيدة الإسلامية فليس هناك داعي أن يقال بأن هذه الفكرة موجودة في دين آخر.

وبالنسبة للانتقام من الدين الإسلامي فهذا أيضًا دليل ضعيف؛ لأن المسلمين الأوائل كانوا أقوياء من الناحية الإيمانية، وكانوا حريصين على الإسلام؛ فلم تكن هناك ثغرة لإدخال الأفكار الأجنبية فيه.

المطلب الرابع القول بالمصدر الشيعي

بالنسبة لإرجاع التصوف إلى المصدر الشيعي فإن هناك من يقول إن التصوف أخذ تعاليمه من التشيع، ويذهبون إلى أحداث تاريخيه؛ فيقولون: إن التشيع والتصوف لم يكونا موجودين في زمن النبي (ﷺ)، وإن التشيع أقدم من التصوف، وإن التصوف أحدث بعد التشيع، ونشأ في صفوف الزهاد والعباد، والمسلمون عرفوا الزهد في تعاليم الرسول (ﷺ) وحياته العملية، وتعاليم الصحابة وسيرهم، ولكن لما دخل فيه بعض الناس المظهرين

(1) ينظر: موقف الإسلام من التصوف: (رسالة ماجستير): عمر عطا الله ابو اصبع ، 161 – 162. والحياة الروحية في الإسلام: د. محمد مصطفى حلمي ، 49 – 53 .

(2) ينظر: قضية التصوف المنقذ من الضلال: د عبدالحليم محمود ، 95.

(3) ينظر: التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع: د. السيد رزق الحجر، 21 – 22. والحياة الروحية في الإسلام: د. محمد مصطفى حلمي ، 53.

بأنهم من الصوفية وبيطنون انحرافاتهم ومذاهبهم المختلفة وراء هذه الصفات والأخلاق التي تقبلها عامة الناس، وكان ممن اندس في صفوف الزهاد الرافضة المنحرفون بعد حياة طويلة بالعنف والثورات، فلما فشلوا وبطش الحكام بهم لجأوا الى الزهد واندسوا في صفوف الزهاد لبث سموهم ورفضهم بين الناس. وان التصوف والتشيع قد عاشا وترعرعا في وسط بيئة واحدة، وقد أثر كل منهما في الآخر تأثيراً واضحاً وإن كان التشيع له أثر أوضح في التصوف؛ وذلك أن التشيع يدب إلى التصوف أملاً في استغلال مكانته وتطويعه لأغراضه، وفعلاً أخذ التشيع يتغلل في التصوف ويطويعه لأغراضه؛ ولذلك أخذ يظهر الأثر الشيعي في التصوف ورجاله حتى الحلاج نفسه كان داعياً اسماعيلياً أو قراميطياً وشيعياً. على كل حال استخدم طاقته الصوفية ونفوذه الروحي للتأثير في الناس ونصرتهم إلى الفاطميين أو القرامطة التي يسميها المتصوفة الولاية، وفكرة عصمة الامام، وفكرة من لا يكون له امام يكون من الضالين التائهين. هذه الأفكار أثرت في التكوين الداخلي للنظم الصوفية، وفي علاقة الشيخ بالمرید وعلاقة المرید بالشيخ، حتى ذهب ابو يزيد البسطامي الى القول بان من لم يكن له استاذ فامامه الشيطان. ويقول الكليني في منزلة الامام بين أتباعه: إن الامام ينطق عن الله في الكتاب، وإنه أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا (ﷺ) عن دينه، وأيلج عن سبيل مناهجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، وجعلهم مسالك لمعرفة معالم لدينه وحجاباً بينهم وبين خلقه، والباب المؤدي إلى معرفة حقه، أطلعهم الله على المكنون من سره. يقول القائلون بهذا القول: ونرى هذه الفكرة موجودة بين الصوفية؛ فإنهم تأثروا بالشيعية، فنرى الصوفي يأخذ علمه عن الله، وذاك الامام ينطق عن الله، فالفكرتان متوافقتان، وبما أن التشيع سابق على التصوف لا بد من القول بأثر التشيع على التصوف (1).

ومن دلائل تأثير التصوف بالتشيع: فإن كثيراً من رجال التصوف الأوائل كانوا من الشيعة؛ فأبو هاشم الكوفي وإن كان لم يرم بالتشيع ولكنه كان من الكوفة الشيعية ومتهماً بالزندقة والدهرية. وكذلك جابر بن حيان يذكره (ماسينيون) ويقول: ورد لفظ الصوفي لقباً مفرداً لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي؛ إذ نعت به جابر بن حيان؛ وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة، له في الزهد مذهب خاص.

وذكره (نيكلسون) بقوله: جابر بن حيان الكيمائي المعروف كان يدعى جابر الصوفي، وأنه تقلد كما تقلد نو النون المصري العالم الباطن الذي يطلق عليه القطني مذهب المتصوفين من أهل الإسلام. وذكر المستشرق (التشيكو سلاوي بي كراوس) أن جابر بن حيان كان من الشيعة الغلاة، ولعله كان من القرامطة أو الإسماعيلية، وكان يرجح مثل النصيرة سلمان علي محمد، كما كان يعتقد مثل الغلاة والنصيرية عقيدة تناسخ الأرواح.

ويقل هذا المستشرق عن جابر بن حيان نفسه أنه يقول: إنه أخذ جميع علومه عن جعفر الصادق معدن الحكمة، وأنه ليس إلا الناقل المحض والمرتب.

ومن دلائل تأثير التصوف بالتشيع وعلائمها أن سلاسل التصوف كلها ما عدا النادر القليل منها تنتهي إلى علي ابن أبي طالب (ﷺ) دون سائر أصحاب رسول الله (ﷺ)، وفي طرق إسنادها إلى علي (ﷺ) أسماء أئمة الشيعة المعصومين حسب زعمهم من أولاد علي (ﷺ) دون غيرهم (2).

أقول وإن كان هؤلاء يرجعون التصوف إلى المصدر الشيعي، أو أن التصوف قد تأثر بالتشيع، فإن رجاءه كلياً إلى المصدر الشيعي هذا لا أراه صحيحاً، ولكن تأثره بالتشيع ربما حدث ذلك، وإن كان حدث ذلك فلا يدل على أن التصوف باطل ولا يتناسب مع الإسلام، لكن الأصح أن نقول: إن التصوف أصلها من الإسلام لكن يمكن أن يكون هناك آثار وأفكار شيعية دخلت فيه، فنقول كل الأفكار الخاطئة والتي لا يتطابق مع الإسلام انها دخيلة على التصوف الإسلامي ولا بد من تنقيته منها.

(1) ينظر: موقف الإسلام من التصوف (رسالة ماجستير): عمر عطا الله ابو اصبع، ص 165 – 166. والعلاقة بين التشيع والتصوف (رسالة دكتوراه): فلاح بن اسماعيل بن احمد، 113 – 114، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، 1411 هـ.

(2) ينظر: التصوف المنسأ والمصادر: احسان الهي ظهير، 147. و العلاقة بين التشيع والتصوف (رسالة دكتوراه): فلاح بن اسماعيل بن احمد، 114 – 117.

الخاتمة

- عندما يكتب الإنسان في موضوع ما ويتعمق فيه يواجهه الكثير من الصعوبات، ولا بد أن يجتهد الإنسان ويسهر الليالي من أجل تحصيل العلم والمعرفة، فالإنسان لا يحصل على شيء إلا بالسعي والجهد، وعندما ينهي الإنسان أو الباحث عمله يجد ثمرة جهده فيسعد بها، واني بقدر استطاعتي قرأت عن هذا الموضوع ثم كتبت عنه، وفي النهاية توصلت إلى نتائج يمكن أن نقول بأن أهمها هي:
- 1 — إن التصوف الصحيح أصله إسلامي، ونابع من روح الإسلام، وهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على الزهد.
 - 2 — لا يمكن أن نقول بأن التصوف أصله غير إسلامي وإنه شيء دخيل على الإسلام، أما بالنسبة لتأثيرها بالمصادر الأجنبية فهذا ممكن، ولكن بقدر قليل جداً، وعند أناس محدودة، ولو فرضنا أنه متأثر بها فلا نسمي هذا التصوف تصوفاً حقيقياً مادام لم يتطابق مع التصوف والزهد الإسلامي الصحيح.
 - 3 — يوجد في التصوف أحوال تشابه مع أحوال تصوف الديانات الأخرى، مثل الحلول ووحدة الوجود، فكما أنها موجودة في الإسلام فهي موجودة أيضاً في التصوف البوذي.
 - 4 — المستشرقون الذين انتقدوا من التصوف الإسلامي ليس لهم علم كامل بالإسلام، وليسوا مطلعين عليه تماماً؛ فهم يتحولون من قول إلى آخر، تارة يقولون بأن أصل التصوف غير إسلامي، وتارة أخرى يقولون إنه نابع من روح الإسلام.
 - 5 — المستشرقون يقولون إن المسلمين أخذوا التوحيد والتصوف من المسيحيين ورهبانهم، ولا يعلمون بأنهم ولا رهبانهم غير موحدين (كأمثال المستشرق رينولد نيكلسون).
 - 6 — أعداء الإسلام لم يزلوا ولا يزالون في مواجهة وحرب مع الإسلام والمسلمين وأفكارهم؛ فعلينا أن نتمسك بالإسلام الصحيح وتصوفه النابع عن عقائده، وعلينا أن نصح ما هو خطأ في التصوف الراهن لدى بعض الناس، وأن ننذ الأفاكار غير الصحيحة ومما ابتدعه المبتدعون.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 1- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت.
- 2- التصوف الإسلامي الطريق والرجال: د. فيصل بدير عون، دار الثقافة القاهرة، 1983.
- 3- التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع: د. السيد رزق الحجر، دار الهانيء، 2004 م.
- 4- التصوف المنشأ والمصادر: إحسان الهي ظهير، ط 1، 1986 .
- 5- التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء منه (رسالة دكتوراه): ابو الخير تراسون، جامعة أم القرى بمكة المكرمة 2002 م .
- 6- الحياة الروحية في الإسلام: د. محمد مصطفى حلمي، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.
- 7- العلاقة بين التشيع والتصوف (رسالة دكتوراه): فلاح بن إسماعيل بن أحمد، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، 1411هـ
- 8- اللمع: أبو نصر السراج الطوسي، تحقيق: د. عبدالحليم محمود و طه عبدالباقي سرور، مطبعة السعادة - مصر 1960.
- 9- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد الحميد السلفي، ط 2، مكتبة الزهراء - موصل، 1983.
- 10- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت.
- 11- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط 3، دار ابن كثير، 1987.
- 12- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

- 13- عمدة القاريء : بدرالدين محمود بن أحمد العيني، دار احياء التراث العربي-بيروت.
- 14- فتح الباري في شرح صحيح البخاري: الإمام الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني، ط 2 ، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
- 15- قضية التصوف المنقذ من الضلال: د. عبد الحلیم محمود .
- 16- مدخل إلى التصوف الإسلامي: د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، ط3، دار الثقافة القاهرة 1979م.
- 17- مشكاة المصابيح: محمد بن عبدالله خطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الالباني، ط 3، المكتب الإسلامي – بيروت ، 1985.
- 18- من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة: د. محمد السيد الجليند، ط4، دار قباء، القاهرة 2001م.
- 19- موقف الإسلام من التصوف: (رسالة ماجستير) : عمر عطا الله ابو اصبع.
- 20- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: د. علي سامي النشار، ط 8 ، دار المعارف، 1980 .

References

- 1 - Flags Dictionary of translations of the most famous Arab men and women Arabists and Orientalists: Khair al-Din Zarkali, House of Science for millions - Beirut.
- 2 - Islamic Sufism Road and men: d. Faisal Bedair Aoun, Cairo Culture House, 1983.
- 3 - Islamic Sufism between followers and innovation: d. Mr. Rizk Al-Hajar, Dar Al-Hani, 2004.
- 4 - Sufism origin and sources: Ihsan Ghi Zaheer, 1986.
- 5 - Sufism in the second and third centuries AH and the position of the jurists from it (Ph.D.): Abulkhair Tarson, Umm Al-Qura University, Makkah, 2002.
- 6 - Spiritual Life in Islam: d. Mohamed Mostafa Helmy, Egyptian Book Organization, 1984.
- 7 - Relationship between Shiism and Sufism (Ph.D.): Falah bin Ismail bin Ahmed, the Islamic University in the city of the Prophet, 1411 e
- 8- Shining: Abu Nasr Al-Seraj Al-Tusi, investigation: d. Abdel Halim Mahmoud and Taha Abdelbagi Sorour, Al-Saada Press - Egypt 1960.
- 9- The Great Dictionary: Suleiman bin Ahmad Abu al-Qasim al-Tabarani.
- 10 - Sunan Abu Dawood: Suleiman ibn al-Ash'ath Abu Dawood al-Sijistani, investigation: Mohammed Mohiuddin Abdul Hamid, Dar al-Fikr Beirut.
- 11 - Sahih al-Bukhari: Mohammed bin Ismail Abu Abdullah al-Bukhari, the investigation: Mustafa Deeb al-Bagha, i 3, Dar Ibn Katheer, 1987.
- 12 - Sahih Muslim: Muslim bin pilgrims Abu Hussein al-Qushayri Nisaburi, the investigation: Mohammed Fouad Abdul Baqi, Dar revival of Arab heritage, Beirut - Lebanon.
- 13 - Mayor of the reader: Badreddine Mahmoud bin Ahmed Al-Aini, Dar revival of Arab heritage - Beirut.
- 14 - Fath al-Bari in explaining Sahih al-Bukhari: Imam al-Hafiz Shihab al-Din Ibn Hajar al-Askalani, Dar al-Maarefa, Beirut - Lebanon
15. The issue of mysticism saved from misguidance: d. AbdulHALim MAhloud, Free Membership.
- 16 - Introduction to Islamic Sufism: d. Abu Wafa Ghanimi Taftazani, Cairo Culture House 1979.

- 17- Mishkat al-Misbah: Muhammad ibn Abdallah Khatib al-Tabrizi, Investigation: Mohammed Nasser al-Din al-Albani, Islamic Bureau, Beirut, 1985.
- 18 - Of the issues of mysticism in the light of the book and the year: d. Mohamed El Sayed El-Glind, 4th floor, Dar Qubaa, Cairo 2001.
- 19 - The position of Islam from Sufism: (Master): Omar Atallah Abu finger.
- 20 - the emergence of philosophical thought in Islam: d. Ali Sami Al-Nashar, 8th floor, Dar Al-Maaref, 1980.